

الحجاج بالاستدراج عند الشعراوي من الدين إلى العقل

زرارة بولفعة

جامعة عمار ثليجي - الأغواط

ملخص :

الناظر في أدوات الاستدراج المصاحبة لفعل الحجاج في خطاب الخواطر، تستوقفه في البدء آليات اشتغال هذه الأدوات، حيث عمدت في وضعيات تخاطبية حجاجية معقدة، إلى العمل على إرساء هاجس الوصول إلى الحقيقة القرآنية، عبر منفذ المحاجة.

وسيل ذلك، أنه لا يتم إلا عبر إعادة الصياغة لموضوع السؤال المعنى، وهو منهج رسمته متطلبات منهج الخواطر في الدعوة إلى الله، حيث توسمت في نظرتها الإستراتيجية الشاملة، ضبط بناء بنية الاستدراج للمخاطب، وفق منحين اثنين هما:

أ- تنوع موضوع المحاجة.

ب- احترام مستويات التلقي.

ولما كانت ممارسة التنوع في المواقف الخطابية، مظهرًا تجلت عبره الممارسات الخطابية، فإن تداعياتها على مستوى أفعال الكلام، كانت أبين، حيث مارس صاحب الخواطر من خلالها مستويين من المعالجة.

- إما أن يباشر بسط القول في الموضوع المحاجّ حوله، عبر مسار استدراجي طبيعي.

- وإما أن يتضمن المنحى الحجاجي، استدراجاً، يكون فيه موضوع المخاطبة، محل تقدير، مما يدفع الذات المتكلمة - الشعراوي - إلى أن تنشق إلى أكثر من ذات .

- تمهيد :

ولما كان خطاب الخواطر في مقارنته للنص القرآني، ميالاً إلى استعمال نفس أدوات الاشتغال القرآنية، مع الإقرار

بالتفاوت الجليّ بينهما، سيما في تقديم الخطاب القرآني الحجاج بمستويات مختلفة، تبعاً لاختلاف مستويات التلقي، فإن

لخصوصية الحجاج بالاستدراج، تأديت متنوعة صفتها « موظفاً أقصى توظيف تنوعها لينوع مظاهره، فيعبر صوته

وسمعه إلى المخاطب، كما يستعير صوته وسمعه، وليكثر أدواره¹ وهي إرادة كلامية دافعة إلى شحذ أدوات الاشتغال

صوب غاية واحدة.

ولعلنا ونحن نختار المعاينة التي قامت بها الخواطر لمنهج القرآن في مناظرته لليهود، و في جهة الانتماء لسيدنا إبراهيم U بالذات نسعى لاكتشاف المنحى الاستدراجي الذي قاربت به الخواطر كصفات التشكيل الحجاجي، و توصيف السياق الذي أدى إلى نشوء المحاجة، وصولاً إلى معاينة أدوات الاشتغال التي وظفها خطاب الخواطر، سيما في ظل الشراء الذي قدمته آليات الاستدراج في كل محاجة. تبعاً لتعدد أفعال الكلام المشتغلة في موضوع المحاجة، حيث تكون «كُتبان من طبقات تتعدّد بتعدد ذوات المتحاور، وتختلف باختلافها وظائفه الخطابية، فقد يكون في طبقة منها في مقام الذات الكلية، وفي أخرى في مقام الذات المجهولة، وفي غيرها في مقام الذات المذكورة، وفي أخرى أيضاً في مقام الذات الجازمة»².

1- الاستدراج بالسؤال:

1-1- سياق بناء المحاجة:

قدم القرآن الكريم سيدنا إبراهيم U في أشرف صورة، قمتها وصيته عند موته (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ)³.

ومدار تبيين هذه الوصية بتوصيف الخواطر، أنها تأتي « لحمل الإنسان على شيء نافع في آخر وقت لك في الدنيا؛ لأن آخر ساعات الإنسان في الدنيا إن كان قد عاش فيها يغش الناس جميعاً فساعة يحتضر لا يغش نفسه أبداً ولا يغش أحداً من الناس لماذا؟ لأنه يحس أنه مقبل على الله سبحانه فيقول كلمة الحق»⁴

في رصيد سيدنا إبراهيم U الإيماني، وقفات إيمانية وثقها القرآن الكريم في أكثر من موضع، مثلها في البدء، التسليم الكامل لرب العالمين [إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ]⁵.

ثمة التفاتة، يُقدمها خطاب الخواطر ثراءً للرصيد الإيماني الذي عمل سيدنا إبراهيم U على تقويته، حيث « لم يقل الحق أسلم إليّ، لأنها مفهومة.. ولم يقل أسلم لربك لأن الإسلام لا يكون إلا لله. لأنه هو سبحانه المأمون علينا»⁶، وإنما قال أسلم.

في خطاب التحرير والتنوير مثلاً، ثمّة تخريج آخر لمسألة الاكتفاء بأسلم دون غيرها، كونها من المنظور اللغوي أنّه «قد فهم أن مفعول أسلم ومتعلقه محذوفان يُعلمان من المقام أي أسلم نفسك لي كما دل عليه الجواب بقوله: «أسلمت لرب العالمين» وشاع الاستغناء عن مفعول أسلم فنزل الفعل منزلة اللازم يقال أسلم أي دان بالإسلام»⁷.

غير أن في ردّ سيدنا إبراهيم U من منظور الخواطر، بإضافة رب العالمين، فهي قد أضافت في متعلقات المعنى دلائل أخرى، حيث أضفت معنى «أنه لن يكون وحده في الكون. لأنه إذا أسلم لله الذي سخر له ما في السماوات والأرض.. يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان»⁸.

ولأنّ توصيفها في خطاب التحرير والتنوير مثلاً، على أنها استجابة فورية، كان لتأديت الصيغ اللغوية إظهار حركيتها في الاستجابة، ذلك أنّ «قوله: {قال أسلمت} مشعر بأنه بادر بالفور دون تريث كما اقتضاه وقوعه جواباً، قال ابن عرفة: إنما قال لرب العالمين دون أن يقول أسلمت لك ليكون قد أتى بالإسلام وبديله»⁹.

ثمّة أيضاً، في الرصيد الإيماني لسيدنا إبراهيم U، وقفة لافتة، وذلك غداة الاستعداد الكامل لتقديم الابن قرباناً لله Y، حتّى جاء الفداء العظيم [فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ]¹⁰.

وفي تاريخ سيدنا إبراهيم U كما جاء في القرآن الكريم، ثمّة تجميع لمواصفات متنوعة، لن نجد مفردات توصيفها أحسن ممّا ذكره الله Y في قوله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)¹¹.

الذي استدرجت الخواطر المتلقي للتساؤل عنه، في هذا الموضع هو: ماهي المواصفات التي أهلته ليكون أمة؟ في منظور خطاب الخواطر، هو أنه «حين تتبع تاريخ إبراهيم . عليه السلام . في كتاب الله تعالى تجد كل موقف من مواقفه يعطيك خصلة من خصال الخير، وصيغة من صفات الكمال، فإذا جمعت هذه الصفات وجدتها لا توجد إلا في أمة بأسرها، فهو إمام وقدوة جامعة لكل خصال الخير»¹².

عند تجميع كل هذا الرصيد الإيماني، وفق مقرراته القرآنية، تجد نيّله درجة الاستحقاق، بأن وصفه الله Y

بصفة «خليل الرحمن» مستحقة في قوله I [وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا]¹³

وحتى نتمكن من معاينة خطاب الخواطر، في كيفية بناء مقارنته للنص القرآني الحجاجي بآليات استدراجية، في قضية المزاعم التي أبداها اليهود حول شخصية سيدنا إبراهيم^U، وضمن ضوابط الالتزام بالمنهج من الأحدى أولاً، التحديد الأمثل للإشكاليات، ثم فهم بعض خلفيات طرح الادعاء، تمهيداً لمعاينة آليات الاستدراج المشتغلة في الخطاب، وصولاً إلى الخطاب التفنيدي لهذا الزعم.

إذن في الأساس، ثمة زعم:

مفاده: يهودية سيدنا إبراهيم^U .

مُستنده: نصوص وردت في التوراة.

غايته: تحقيق جملة من الأهداف، منها¹⁴:

- إيهام الآخرين بأنهم الوحيدين نسل إبراهيم وذريته وهم أحق بالنبوة والرسالة من غيرهم.
- إيهام الآخرين بأنهم على حق، فهم على دين إبراهيم مادام إبراهيم في زعمهم يهودياً.
- إيهام الآخرين بأنهم أحق الناس بالأرض المباركة المقدسة.

وفي سبيل تنفيذ الصورة المقدمة لسيدنا إبراهيم^U التوراتية، بالقياس إلى صورته القرآنية، تتجه طبيعة التفنيد في الخواطر، إلى العمل وفق منحنيين:

- فحص جملة الادعاءات.
 - ملاحظة المناقاة الحاصلة بين الصورتين في الدين والأخلاق والعقيدة.
- ولتحقيق درجة سليمة من المعاينة، كانت آليات اشتغال الخواطر على المسالك الخطابية التالية:

1-2- الاسترسال الخطابي:

حين تمّ افتتاح خطاب الخواطر الحجاجي، لموضوع المحاجة، المتعلق بالمزاعم المذكورة آنفاً، كان باتجاه تفكيك

بُنى النص القرآني الحجاجية، والتوقف بالذات، عند مفتتح حجاجي مثله التساؤل بالصيغة التأكيدية :

« السؤال: لماذا إبراهيم بالذات دون سائر الأنبياء؟ »¹⁵.

في سبيل أن تتشكل لدى المخاطب مساحة تفاعلية، تتسم بالحوار - ولو بقصدية توجيهية لدى المحاجج - كان البدء بهذه الصيغة، وهي آلية استدراجية يتسنى من خلالها إدماج المتلقي في المحاور، لذا كان السؤال بصيغة « ماذا » المقرونة باللام، والتي تتطلب جواباً يأتي بعد تفكير، والتي من تداعياتها أيضاً، أنّها تحمل المخاطب على الاهتمام بما سيُلقى إليه.

وأيضاً، في سبيل ضمان سلامة استدلالية للقضية المزعومة، يُبادر للجواب بصيغة استدراجية، مثلها لفظة الإشارة « ذلك » الواردة في سياق استثنائي، ليعقبها التعليل مباشرة « ذلك لأنه أبو الأنبياء، وله مكانته بين الأنبياء، والجميع يتمحكون فيه، حتى المشركون يقولون: نحن على دين إبراهيم، والنصارى قالوا عنه: إنه نصراني. واليهود قالوا: إنه يهودي »¹⁶.

بعد الانتهاء من رصد العناصر المكونة للقضية، وضبط المسار الذي يتحرك فيه الاستدراج بالسؤال، ينتقل إلى ما أوحى إليه استعمال المفردة القرآنية « حنيفاً » في تأليف المحاجة، سيما في تعلقها بمنظورين متمثلين، قد يتعارضان لدى تشكيلهما المعنى.

في البدء، كعادة خطاب الخواطر، يُورد تعريفاً له، ذلك أنّ « الحنف هو ميل في الساقين من أسفل، أي اعوجاج في الرجلين، ثم نقل الحنف إلى كل أمر غير مستو »¹⁷.

يُباشر خطاب الخواطر بعدها، آلية الاستدراج بالبحث عن ماهية علاقة المشابهة، الناشئة بين المعنى اللغوي للفظ « حنيف » وبين أصلها للدين القويم الذي ارتضاه الله Y لنبه إبراهيم U، وذلك عبر صيغة تساؤلية، مفادها « هل كان إبراهيم عليه السلام في العوج أو في الاستقامة؟ وكيف يكون حنيفاً، والحنف عوج؟ »¹⁸

من خلال مُوجهات تكثيف الأسئلة، ونقطة الربط بين العوج والاستقامة، يبدأ الاستدلال في سبيل استصدار حكم، يُفك به نوعية العلاقة بينهما.

ومجال النظر في ذلك، يأخذ عدّة مسارات بحيث يُعتمد على السياق الحجاجي للمُخاطبة، على مُراعاة الظرف التاريخي الذي بُعث فيه سيدنا إبراهيم U، مُعائنا الجانب القيمي فيه بالذات، ذلك لأن التعلق حاصل بجوهر

الذين، العقيدة، والتي هي محلّ محاجة « جاء إبراهيم والكون على فساد واعوجاج في تكوين القيم، فمال عن هذا الاعوجاج، وحاد عن هذا الفساد »¹⁹.

ولما كان حال بعث سيدنا إبراهيم مدعاة إلى إحداث كلّ هذا التغيير، كان لازماً الاتجاه إلى ضبط آلية استدراجية تستجيب لتصور استدلالي، يتم من خلاله عرض القضية في صيغة تستدعي فيها منطقية النتائج، بدل اللجوء إلى مناحي أخرى، قد تفقد فيها اللغة الضبط لدى توصيف الحالة المراد دراستها.

من أجل ذلك، أفرد خطاب المخاطر نموذجاً يُقتضى فيه، سلوك منهج يعتمد على التعليل للنتيجة المتحصّل عليها، والتي مفاد القضية فيه، أنه « ما دام منحرفاً عن العوج فهو مستقيم، لماذا؟ »²⁰

لا تلبث أن ترتسم تداعيات أخرى، سيما في ظل تتابع آليات الاستدراج، حتى وإن رسا خطاب المخاطر على معنى الحنفية وفق مدلولها القرآني، بعد تأديته لسلسلة من العمليات الخطائية، هذه الحقيقة أفردتها في نتيجة مفادها « إذن إبراهيم عليه السلام جاء حنيفاً، أي مائلاً عن المائل، وما دام مائلاً عن المائل فهو مستقيم، فالحنفية السمحة هي الاستقامة »²¹.

في سبيل آخر، يعمد خطاب المخاطر الحجاجي إلى آليات استدراجية أخرى، بحيث يأتي إلى تغيير استعمال المفردات القرآنية، عن طريق الاستبدال، على مستوى محور الاختيار.

قصديته إذن، اختبار لقدرة المتلقي على مسايرة العملية الحجاجية، وإثارة للمعنى الذهني لديه، وذلك باللجوء إلى الزاد المعرفي الذي يحمله المتلقي، وبالذات إلى ما قد يخلد بذهنه غداة التوقف عند تدبر معاني الآية الكريمة، حتى يتبادر إليه مثلاً، ما تبادر لخطاب المخاطر من بدائل في استعمال المفردات القرآنية « قد يقول قائل: ولماذا لم يقل الله: " إن إبراهيم كان مستقيماً " ولماذا جاء بكلمة " حنيفاً " التي تدل على العوج؟ »²².

ثمة وقع جمالي ودلالي، حملته المفردة القرآنية « حنيفاً » ككيان لغوي مستقل، ففي تاريخ اللفظة، ثمة خصوصية، يمكن حصرها في ارتباطين اثنين هما :

- ارتباط ورودها بقضايا التوحيد.

- ارتباطها في المحاجات التي دارت بين سيدنا إبراهيم وقومه²³.

دون أن نغفل متعلقاً آخر، وهو اقتراحها بلفظتي «أمة» و «قانتاً»، ككيانات لغوية لها تاريخها أيضاً، فمن ناحية وقعها الجمالي، نقف عند ما أمدّه ملمحها الصوتي والإيحائي، من وقع، لدى تجلية المعنى القرآني للقضية التي هي محل حاجة، حيث أنه « من الممكن التعويل على أن معنى اللفظة قد يتراءى من رنين أصواتها ومن إيحائها الخاص »²⁴.
 مُتلقِي النص القرآني، المتذوق، يهتدي بحسه الجمالي السليم على أن مفردة « حنيفاً » هي المفردة الأنسب، ليس لانسجامها الصوتي بحركة التنوين بالفتح مع ما سبقها من مفردات وحسب، وإنما لأنها عماد التأدية القرآنية للمعنى القرآني في هذا الموضع بالذات.

وفي تأدياتها الدلالية، ثمة وقفة، يتبنى خطاب الخواطر فيها، التدليل على عدم انسجام الاختيار اللفظي في مفردة « مستقيماً »، بل حتى عدم أهليتها لمواكبة سياق الآية، وحملها للمعنى في حال استعمالها إلى تخوم أخرى، لذلك « نقول: لو قال " مستقيماً " لظن بعض الناس أنه كان على طريقة أهل زمانه وقد كانوا في عوج وضلال ولهذا يصف الحق إبراهيم بأنه { كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا } وكلمة { مُسْلِمًا } تقتضي " مسلماً إليه " وهو الله، أي أنه أسلم زمامه إلى الله، ومُسْلِمًا فيه وهو الإيمان بالمنهج »²⁵.

ثمة منعطف استدرجي آخر، يمكن رصده في الانتباه الذي قدمه خطاب الخواطر في صيغة تساؤل بعد استدراك، خُصّ فيه ماهية استعمال الألفاظ في حدّ ذاتها « ولكن كيف يؤتى بلفظ يدل على العوج ويجعله رمزاً للصراط المستقيم؟ »²⁶.

في سبيل فهم دلالات الاستعمال، لا يخرج خطاب الخواطر عن دائرة رصد علاقة المشابهة بين أصل الدلالة فيه، وبين ما استعمل له، مع إضفاء بُعد آخر في رصيد المفردة، وهو « وقوله تعالى: " حنيفاً " تذكرنا بنعمة الله على الوجود كله لأنه يصحح غفلة البشر عن منهج الله ويأخذ الناس من الاعوجاج الموجود إلى الاعتدال.. »²⁷

يأخذ منحى هذا الاستعمال شكلاً آخر في خطاب التحرير والتنوير مثلاً، فهو رصد للتحويل الدلالي للمفردة القرآنية « حنيفاً » من حقل المفردات الدالة على الاعوجاج، إلى الحيف بمعنى الميل عن ماهو متعارف عليه، وصولاً إلى حملها صفة المدح، لالتصاقها بالمعنى القرآني، المرادف للعقيدة الإسلامية الصحيحة « وإنما كان هذا مدحاً للملة لأن

الناس يوم ظهور ملة إبراهيم كانوا في ضلالة عمياء، فجاء دين إبراهيم مائلاً عنهم فلقب بالحنيف ثم صار الحنيف لقب مدح بالعلبة»²⁸.

إنّ طبيعة أدوات الاشتغال، التي وظفها خطاب الخواطر، عبر استفادته من آلية بناء السؤال الاستدراجي، ورصد إمكانات تحرك المتلقي فيه، أدت لبناء محاور ذات فعالية خطابية عالية، حتى وإن كانت المواقف الخطابية للمخالفين، قد طبعت بطابع الضمنية أحياناً، فإنها ضمننت النتيجة التي مفادها، زيف الادعاء بيهودية سيدنا إبراهيم مصداقاً لقوله I [مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] ²⁹.

1-3- الشواهد الحجاجية:

نوع خطاب الخواطر في تقديم الحُجج المُفندة لمزاعم اليهود، حول يهودية سيدنا إبراهيم، سيما في ظل تداول نفس المزاعم حتى في عصرنا الحديث، مما تطلب إعادة النظر في فهم آليات الاشتغال المُقدّمة لبطلان هذا الزعم، كما أوردتها الخطاب القرآني في عدة مواضع.

في البدء، يفتتح المحاور بالسؤال الجوهرى، والذي مفاده « لماذا إبراهيم بالذات دون سائر الأنبياء ؟ » ³⁰.

سؤال، يدفع إلى التذكير برحلة سيدنا إبراهيم مع الإيمان، وكيفية تنامي الرصيد الإيماني مع كل محنة، ومبتغى ذلك تكوين الأرضية الحجاجية اللازمة، ليتم من خلالها إيجاد « مسافة خطابية نواتها الانخراط في الحس المشترك لبناء مقدمات مقبولة » ³¹، على أن يتم بعدها توظيف آليتي الادعاء والاعتراض، ضمن سياق استدراجي، أداته السؤال.

تركيبة السؤال والجواب، التي وسمها خطاب الخواطر بكثير من المقاصد، مثلت رافداً حجاجياً، غايتها إعادة

فحص الخطاب المفند لمزاعم اليهود حول القضية المذكورة آنفاً، عبر البحث عن صياغات جديدة.

لتمّ تغليب المباشرة والوضوح أحياناً، من قبيل هذا النموذج « هل كان إبراهيم عليه السلام في العوج أو في

الاستقامة؟ » ³².

فقد تتغير الصيغة، كأن تكون صيغة استفهام متكرر، مَصوغ غالباً من مقولات أصحاب زعم يهودية سيدنا إبراهيم^٥، مع الإضافة إليها ما يكملها من مقولات مغيّية، تحمل في الغالب حراكاً حججياً، يمكن إدراج نموذج لها من هذا القبيل « قد يقول قائل: ولماذا لم يقل الله: " إن إبراهيم كان مستقيماً " ولماذا جاء بكلمة " حنيفاً " التي تدل على العوج؟ »³³.

ممكن إدراج الأسئلة بهذه الكيفية، قد « يكون المراد إحاطة المستمع بما لم يكن له به خبر، إلى جانب إثارة دهشته وشدّ انتباهه »³⁴.

من الآليات الحجاجية اللافتة، الاشتغال على الاشتقاقات اللفظية، عبر منفذ المشابهة، كما حصل مع المفردة القرآنية « حنيفاً » حيث مكنت من بناء نسق حججياً، ينسجم مع المقصد العام، سبيله إلى ذلك الاستدلال بكل أدواته، تجاوزاً لبنيات البرهان الضيقة، وذلك بأن « يعتمد المحاور في بناء النص الصور الاستدلالية مجتمعة إلى مضامينها أوثق اجتماع »³⁵.

مواصفات السبيل الاستدلالي هذا، تكمن في عرضه السليم للمقدمات، مستنداً في ذلك على رفع الالتباس في المتوالية الخطابية، ليسوق الدليل على علاقة الاستلزامية، وفق صياغاتها اللغوية المنطقية، بعد أن تكون قد حُدِدت السمات المشتركة بينهما، وعليه يمكن إيراد نموذج من هذا القبيل « قلنا إن الحنف هو الاعوجاج.. ونقول إن الاعوجاج عن المعوج اعتدال.. والرسول لا يأتون إلا بعد اعوجاج كامل في المجتمع.. ليصرفوا الناس عن الاعوجاج القائم فيميلون إلى الاعتدال.. لأن مخالفة الاعوجاج اعتدال.. »³⁶.

من الشواهد التي استند إليها خطاب الخواطر، الحقيقة القرآنية التاريخية، الخاصة بنزول الكتب السماوية، كما عرضها الخطاب القرآني، مثلها في عدم معقولة ما يدّعون، بل وصفها بالباطلة، في كون أن التوراة والإنجيل أنزلتا بعد سيدنا إبراهيم^٥ بمئات السنين (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)³⁷.

حول فحوى الدعوة، ويقينية الحقيقة القرآنية، يمثل خطاب الخواطر لوجهة الطرح الحجاجي القرآني، بحيث يدعو إلى استخدام العقل غداة النظر فيما يدعون... فلما الحاجة إذن؟ لقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم فكيف يكون تابعا للتوراة والإنجيل؟³⁸.

حيال فحص الشاهد الحجاجي الذي قدّمته الخواطر، عبر ضرورة مراجعة تاريخ نزول الكتب السماوية، ووقت تكليف سيدنا إبراهيم U بالرسالة، يمكن توصيفه بالشاهد التاريخي، الذي يقوم البناء المنطقي - ممثلا في نقض الدعوى من أساسها - على مجمل آليات اشتغاله، حيث لا يعدو في الأخير إلا أن يكون مآله التصديق به، بحكم أحقيته كدعامة أساسية في الحاجة تعتمد على تحكيم العقل غداة الادعاء « إذ السابق لا يمكن أن يكون على دين اللاحق، بل العكس هو الذي يتبادر إلى الأذهان »³⁹

في مقابل ظهور الدعوة المعارضة له - الداعية بيهودية سيدنا إبراهيم U - بمظهر المفتقر إلى المنطق السليم، لتنتفي معها وجهة الحجج التي قدمها أصحاب هذا الزعم.

لن نتوقف تداعيات التفنيد هنا، بل تنتقل إلى متعلقات ما ترتب عن ذلك من معتقدات وأفكار، حيث يُقدّم خطاب الخواطر تفنيداً ضمناً، لبطلان الادعاءات التي تحولت إلى أفعال موجودة بالفعل، معبر عنها على شكل قناعات، لتتحول على المستوى العملي إلى ممارسات عقائدية فعلية.

يرتسم الشاهد الحجاجي، على شكل نسق منطقي يعمل على تقويض كافة الادعاءات، تبعاً لانتفاء صحة المرتكز الأول، بحيث تغدو الاتهامات الثلاثة الآنف الذكر، معها مجرد أباطيل.

فعند فحص الإيهام الأول، حول أحقيتهم بحمل الرسالة من غيرهم، نجد خطاب الخواطر يصطنع مساحة استدراجية، ملزمة للتأمل في مدلولاتها، مثلها في طبيعة البشر في محبة نقل ما ينعمون به لأولادهم وأحفادهم، حيث « أراد إبراهيم أن ينقل الامامية إلى أولاده وأحفاده... حتى لا يحرموا من القيم الإيمانية تحرس حياتهم وتؤدي بهم إلى نعيم لا يزول... ولكن الله سبحانه وتعالى يرد على إبراهيم بقضية إيمانية أيضاً هي تفرغ لليهود.. الذين تركوا القيم وعبدوا المادة »⁴⁰.

لا يفوت خطاب الخواطر أن يلفت أيضاً، إلى التفريق الإلهي الهام، بين عطاء الألوهية وعطاء الربوبية، فأما الأول فلا ينال إمامته إلاّ المؤمن، وأما الثاني بما أننا استندعينا إلى الحياة، فالرزق مكفول للمؤمن والكافر على سواء.

يأتي في النهاية، البناء الحجاجي الذي أقرتها الخواطر، غداة صياغة الشاهد، منسجماً في النهاية مع مقررات الآية الكريمة في قوله I (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)⁴¹

في تنفيذ الإيهام الثاني، ثمة إقرار بحقيقة كونية، مفادها إن وراثته الأرض تكون مع شرط الإيمان، مصداقاً لقوله I (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)⁴²

تحقيق الصلاح الديني والخلقي والقيمي، مع التذكير بجملة من المواصفات الموجبة لتحقيق « الصلاح المادي الدنيوي، والصلاح المعنوي الأخروي، فان أخذت الصلاح مطلقاً بلا إيمان، فانك ستجد ثمرته إلى حين، ثم ينقلب عليك، فأين أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة؟ »⁴³.

أما الشاهد الحجاجي، في كون الرقي المادي ليس هو المعيار الوحيد لأحقية وراثته الأرض، فقد انتقته الخواطر من حالة دولة معاصرة، ذات ثراء « ففي السويد - مثلاً - وهي من أعلى دول العالم دخلاً ومع ذلك بها أعلى نسبة انتحار، وأعلى نسبة شذوذ، وهذه هي المعيشة الضنك التي تحدث عنها القرآن الكريم »⁴⁴.

أما سبيل الخواطر في تنفيذ الإيهام الثالث، فقد أخذت مسألة الفصل بين سيدنا إبراهيم U واليهودية، مأخذ الفصل الحاسم، حيث للناظر في تعدد وضعيات الاتصال، الواردة في القرآن الكريم بين سيدنا إبراهيم U وأبيه وقومه، أن يدرك علاقة المغايرة الدينية بين الفريقين، حتى وإن اتسمت بعلاقة البنوة - الأبوة، فان صفتها التعارض الأزلي، بين عقيدة التوحيد لسيدنا إبراهيم U، والشرك لآزر عابد الأصنام وبائعها.

مدخل الخواطر التفنيدي العام، اتجه في البدء، إلى الالتفات لتفريق دقيق على مستوى اللغة، يكمن في بلاغة استعمال المفردة القرآنية في حد ذاتها، وحجم الإضافات التي يمكن أن تتراءى على مستوى الدلالة.

استعمل الخطاب القرآني لفظة « عدو » بصيغة الأفراد، مع أن الذي سبقها ضمير جمع، في قوله Y (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)⁴⁵ و لم يقل « أعداء ».

نظرة الخواطر تعزو ذلك، لتغاير العدائتين من حيث المنزع، والمبتغى معاً، ذلك أن الناظر في أمر العداوة، يخلص على أن «
 العداوة في أمر الدين واحدة على خلاف العداوة في أمر الدنيا متعددة الأسباب، كما جاء في قوله تعالى: (وَادْكُرُوا
 نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ...)»⁴⁶.

- ¹ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الطبعة الرابعة 2010، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء- المغرب، ص55
- ² - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الطبعة الرابعة 2010، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء- المغرب، ص53
- ³ - سورة: البقرة الآية: 132
- ⁴ - خواطر الشعراوي، المجلد / 1 ، الجزء 8، مصدر سابق، ص613
- ⁵ - سورة: البقرة الآية: 131
- ⁶ - خواطر الشعراوي، المجلد / 1 ، الجزء 8، مصدر سابق، ص611
- ⁷ - تفسير التحرير والتنوير، الجزء 1، الكتاب الثاني، مصدر سابق، ص 726
- ⁸ - خواطر الشعراوي، المجلد / 1 ، مصدر سابق، ص593
- ⁹ - تفسير التحرير والتنوير، الجزء 1، الكتاب الثاني، مصدر سابق، ص 727
- ¹⁰ - سورة: الصافات الآية: 102
- ¹¹ - سورة: النحل الآية: 120
- ¹² - خواطر الشعراوي حول القرآن الكريم، المجلد / 13 مصدر سابق، ص8271
- ¹³ - سورة: النساء الآية: 125
- ¹⁴ - نادية الشرفاوي، منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى، مصدر سابق، ص96
- ¹⁵ - خواطر الشعراوي، المجلد / 13 ، مصدر سابق، ص8269
- ¹⁶ - خواطر الشعراوي، المجلد / 13 ، مصدر سابق، ص8269
- ¹⁷ - خواطر الشعراوي، المجلد / 13 ، مصدر سابق، ص8272
- ¹⁸ - خواطر الشعراوي، المجلد / 3 ، مصدر سابق، ص1525
- ¹⁹ - خواطر الشعراوي، المجلد / 13 ، مصدر سابق، ص8272
- ²⁰ - خواطر الشعراوي، المجلد / 3 ، مصدر سابق، ص1525
- ²¹ - خواطر الشعراوي، المجلد / 3 ، مصدر سابق، ص1526
- ²² - خواطر الشعراوي، المجلد / 3 ، مصدر سابق، ص1526
- ²³ - يمكن تتبع ورودها في سور القرآن التالية: البقرة، آل عمران، النساء، الأنعام، يونس، النحل، الروم
- ²⁴ - نجيب إبراهيم، جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، الطبعة 1، دار كتعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية - سوريا - دمشق 2002، ص70
- ²⁵ - خواطر الشعراوي، المجلد / 3 ، مصدر سابق، ص1527
- ²⁶ - خواطر الشعراوي، المجلد / 1 ، الجزء 8، مصدر سابق، ص624
- ²⁷ - خواطر الشعراوي، المجلد / 1 ، الجزء 8، مصدر سابق، ص625
- ²⁸ - تفسير التحرير والتنوير، الجزء 1، الكتاب الثاني، مصدر سابق، ص 737
- ²⁹ - سورة: آل عمران الآية: 67
- ³⁰ - خواطر الشعراوي، المجلد / 13 ، مصدر سابق، ص8269
- ³¹ - أمينة دهري، الحجاج وبناء الخطاب، مصدر سابق، ص 99
- ³² - خواطر الشعراوي، المجلد / 3 ، مصدر سابق، ص1525
- ³³ - خواطر الشعراوي، المجلد / 3 ، مصدر سابق، ص1526
- ³⁴ - أمينة دهري، الحجاج وبناء الخطاب، مصدر سابق، ص 76
- ³⁵ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مصدر سابق، ص46
- ³⁶ - خواطر الشعراوي، المجلد / 1، الجزء 8، مصدر سابق، ص 625
- ³⁷ - سورة: آل عمران الآية: 65
- ³⁸ - خواطر الشعراوي، المجلد / 3 ، مصدر سابق، ص1524
- ³⁹ - محمود يعقوبي، المنطق الفطري في القرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية- الساحة المركزية- بن عكنون - الجزائر 2000، ص80
- ⁴⁰ - خواطر الشعراوي، المجلد / 1 ، الجزء 8، مصدر سابق، ص601

-
- ⁴¹ - سورة: البقرة الآية: 124
⁴² - سورة: الأنبياء الآية: 105
⁴³ - خواطر الشعراوي، المجلد / 16 ، مصدر سابق، ص 9668
⁴⁴ - خواطر الشعراوي، المجلد / 16 ، مصدر سابق، ص 9667
⁴⁵ - سورة: الشعراء الآية: 75 - 76 - 77
⁴⁶ - خواطر الشعراوي، المجلد / 17 ، مصدر سابق، ص 10591